البُعد الروحي في حكمة الكبالا اليهودية

The spiritual dimension in wisdom of Jewish Kabbalah

أسمهان بوعيشة *

جامعة الحاج لخضر 1 – باتنة – (الجزائر)

مخبر الفقه ومستجدات العصر

asma.boutalbi@yahoo.com

تاريخ الاستلام: 2022/03/18 **تاريخ القبول للنشر**: 2022/06/04 **تاريخ النشر**: 2023/01/01

ملخص

الكابالا أو الحكمة الخفية هي النزعة الروحية والباطنية في الصوفية اليهودية، ووفق الكباليين تُعد الكبالا طريق الإنسان إلى الروحانية؛ إذ تُقدم للإنسان الإجابات الرئيسية عن الكون وبداياته وأسراره، بالإضافة إلى دور ومصير الإنسان، وأن هناك عالمين، عالما روحيا وعالما ماديا، ويجب على الإنسان أن يصعد تدريجياً إلى هذه العوالم من أجل الوصول إلى مستوى الإنسان الكامل والالتحام باللانهائي فيما يسمى بالديقوت، ولكن هذا المستوى من الكمال لا يبلغه الإنسان إلا بعد رحلة من السقوط والصعود، ومن خلال تجربة روحية، يتلقى مبادئها الحصرية في التعاليم الكبالية.

* المؤلف المراسل.

- الكلمات المفتاحية: كبالا، سيفروت، أدم قدمون، زهار، تناسُخ.

Abstract:

Kabbalah or hidden wisdom is the spiritual and esoteric tendency in Jewish mysticism. It presents to humans the main answers about the universe, its beginnings and its secrets, as well as the role and destiny of man, and that there are two worlds, a spiritual world and a material world, and man must gradually ascend into these worlds in order to attain the level of a complete human being, but this level of perfection A person does not attain until after a journey of fall and ascent, and through an experience spiritual, it receives its exclusive principles in kabbalistic teachings

Keywords: Kabbalah, Sefrot, Adam Qadmon, Zohar, Reincarnation.

مقدمة

تعد تعاليم الكبالا(القبالا) קבלה طريق الإنسان نحو الروحانية بحسب الكباليون، وهو علم يبلغ حوالي أربعة آلاف سنة، ويختص بدراسة الجوهر الأساسي للإنسان والعالم الروحي وبُنية الوجود بأكمله والخالق. أي أن هدف الكابالا هو الوصول بالإنسان في أن يُصبح كالخالق في سماته؛ "انطلاقا مما جاء في التناخ" أحب قريبك كنفسك". ويُطلق عليها أيضا العلم الخفي؛ إذ إنه يتعامل مع ما هو مخفي عن حواسنا الخمسة.

ويمنح هذا العلم حسب مُريديه الطريقة العملية لإدراك العالم العلوي، ونعني به اللانهائي مصدر وجود الكائن البشري وجميع المخلوقات، مما يمنح ا لمريد القدرة على بلوغ التقارب الروحي بين الله والإنسان.

ويعتقد علماء الكبالا أن بمقدورهم التواصل مع الرب دون الحاجة لمؤسسة دينية أو رجل دين، وأن للتعاليم الكبالية القدرة على تبسيط وتيسير حياة الإنسان بمنح المريد بعض

المفاتيح المهمة لفهم الكون؛ إذ تقدم للإنسان الإجابات الرئيسة عن الكون وبداياته وأسراره، وكذا دور الإنسان ومصيره.

وعلى ضوء ذلك تعتبر الكبالا أن الكون موجود من أجل الإنسان ولخدمته، غير أن هناك عالمين؛ عالم روحاني يتكون من خمسة عوالم وآخر مادي، وعلى النفس الإنسانية اتباع التعاليم الكبالية لبلوغ أعلى المراتب السامية للخالق، أي أن الخالق أوجد عوالم روحانية وأخرى مادية على الإنسان أن يتدرج في ارتقائه لهذه العوالم والتي تتكون من 125 درجة وسُلّم قصد بلوغ مرتبة الإنسان الكامل، أو بتعبير آخر من أجل العودة إلى الجذور الروحانية الخيرة للإنسان، الذي حسب التعاليم الكبالية خلق الله الإنسان ابتداء لهذه الغاية أي تحقيق الكمال، ولكن مرتبة الكمال هذه لا يصلها الإنسان إلا بعد رحلة من السقوط والارتقاء وعبر خوض تجربة روحية يتلقى مبادءها الحصرية في التعاليم الكبالية.

وعلى ضوء ما سلف كانت هذه الدراسة الموسومة ب: "البُعد الروحي في حكمة الكبالا اليهودية".

إشكالية الموضوع:

إن عنوان وغايات هذه الدراسة تفرض الإشكالية التالية:

كيف يخوض الإنسان تجربته الروحية على ضوء التعاليم الكبالية؟

ولتفكيك عناصر هذه الإشكالية والإحاطة بموضوع الدراسة أستعين بالتساؤلات الفرعية التالية:

ما هي الكبالا؟ وما أنواعها؟ وما هي أهم كتبها؟ وما المؤثرات الأجنبية في الحكمة الكبالية؟

أهداف الدراسة:

تسعى هذه الدراسة إلى بلوغ بعض الأهداف منها:

❋ التطرق للجانب الروحاني في اليهودية التي غلب وسْمها بالمادية.

❋الوقوف على مضامين الكبالا انطلاقا من بعض المصادر اليهودية وبعيدا عن الكتابات غير الموضوعية في هذا الشأن لما يحوم حول هذا العلم من لَغط وتشويش.

❋ تَبَيُّن عناصر التقارب والتقاطع بين الكبالا اليهودية وروحانية بعض الديانات والفلسفات الشرقية.

منهجية الدراسة:

دون شك يُعد المنهج المعتمد في أي دراسة من الآليات المهمة في فهم أي موضوع قصد ترصده وفهمه وتقديمه وفق الخطة التي يرسمها الباحث؛ وتحقيقا لهذه الغاية استعنت بالمنهج الوصفي من خلال وصف الكبالا وتعاليمها وأنواعها، بغرض فهم العلوم الكبالية وأغراضها وغاياتها وجوانبها الروحانية.

إلى جانب ذلك وظفت المنهج المقارن عبر الوقوف على بعض القواسم المشتركة للكبالا مع الديانات الشرقية؛ خاصة الهندوسية في مسألتي الارتقاء الروحي والتناسخ، والزرادشتية فيما يتعلق بالصراع بين قوة الخير والشر (أهور مازدا وأهرمان)، رغم تنكر ورفض الكباليين لهذه التقاطعات.

المطلب الأول: الكبالا ومنابعها

أولا: تعريف الكبالا

لغة: وكلمة קבלה kabbalah وهي كلمة تعود لجذر كلمة קבל وتعني القبول والاستقبال؛ أي قبول تقاليد الأسلاف، [1]وهي كلمة عبرية آرامية من الجذر الثلاثي الذي يتكون من ثلاث أحرف عبرية: هي קقوف، בبيت، وל لامد، ومعناه. [2]

اصطلاحا: الكبالا (القبالا) هو التقليد والمصطلح الأكثر استخداما للإشارة إلى التعاليم والمعارف الباطنية في اليهودية، خاصة في صيغتها المنتشرة في القرون الوسطى ابتداء من القرن 12م، وهو يُحيل في صورته الشاملة إلى كل الحركات الباطنية المتعاقبة والمتطورة في اليهودية منذ عصر الهيكل الثاني إلى يومنا هذا، لتُصبح نزعة نشطة ومؤثرة في تاريخ إسرائيل. وينزع اليهود إلى تمييز الكبالا عن التصوف المتعارف عليه في الأديان، ولذلك فالكبالا عند اليهود خاصة الكباليون منهم ظاهرة فريدة ومتمايزة، فهو وإن كان تصوفا فإنه يشمل على حد السواء الفلسفة والفكر الباطني. (3)

وتعني الكلمة القبول؛ أي التعاليم والتقاليد التي تلقاها الأسلاف جيلا بعد جيل وحظيت بالقبول والموافقة. وكانت الكلمة في الأدب العبري القديم تُحيل إلى كل مذهب ديني تلقاه اليهود خارج التناخ والمشنا، أما في القرن 11 و12 م فقد أصبحت تُطلق حصرا على النظام الصوفي الذي انتقل كما يعتقد الكباليون مشافهة ودون انقطاع منذ عصر الآباء وباقي الأنبياء اليهود، أي منذ أن وُجد أول إنسان على هذه الخليقة ونعني به آدم عليه السلام. (4)

ويعرف الأكاديمي الإسرائيلي المختص في التصوف اليهودي جرشوم شولوم الكبالا فيقول: "...ويُحيل-أي الكبالا- في دلالته الأولى على معنى مجموع التعاليم الواردة في التناخ وعلى متون الرواية الشفوية، قبل أن يغدو دالا في اليهودية الرِبيّة على علم الأسانيد، وقد اكتسب هذا الاصطلاح حمولاته الدالة على نظام مذهبي إشراقي خاص في عصور متأخرة. ...خلال القرن الثالث عشر الميلادي نظريات في الوجود والمعرفة والقيم، محورها الرئيس مذهب السِّيفيروت أو الأسماء الإلهية وتجلياتها في العوالم المختلفة." (5)

ISSN: 1112-4938, EISSN: 2600-6456

ويعرف أحد الكباليون الكبالا فيقول: "هي العلم الذي يختص بدراسة الجوهر الأساسي للإنسان والعالم الروحي وبُنية الوجود بأكمله والخالق. إن نتيجة الدراسة والبحث هي في اكتشاف أن أُمنيات الإنسان هي في أن يُصبح كالخالق في سِماته".[6] وبتعبير آخر فإن الكبالا حسب معلميها تُعلمنا سبب وجود الإنسان، أي لماذا وُجد؟ ولماذا يعيش؟ وما هو هدف حياته؟ ومن أين أتى؟ وإلى أين يذهب بعد أن يُكمل حياته في هذا العالم؟ فمن خلال الكبالا يعرف الإنسان نفسه ومن هو؟ وما هي طبيعته؟ إذ يتعلم الإنسان فيها كل ما يحتاجه لتغيير نفسه حسب كل درجة يتقدمها في حياته الدنيوية لإحراز العالم الروحي، وهي الطريقة الوحيدة عند أتباعها لاكتشاف العالم الروحي والحياة الروحية، ومن هنا سميت الكبالا أيضا ب "الحكمة الخفية"، ومن وُجهة نظر الكباليون فإن هناك قوة كامنة في داخل كل واحد منا ولكنها تبقى ساكنة في حالة سُبات حتى نقوم بإيقاظها وتنميتها، وأن بتطور البشرية سيكتشف الناس ضرورة وحدتهم، وعندها سيرتبطون بالقِوى العليا التي تربطهم سويا، وعندها سيجدون السعادة الحقيقية.[7]

ولقد وقف بعض علماء الدين والحاخامات موقفا عدائيا من التراث القبالي، فتوتر الوضع بين الكباليين المدافعين عن التفسيرات الباطنية والفقهاء الشرعيين، إذ كان الكباليون يعتبرون أنفسهم أعلى منزلة من الحاخاميين، وفي نهاية الأمر سيطرت الكابالاه على المؤسسة الحاخامية، وأصبحت جزءا من اليهودية التلمودية. [8]

أما في الفكر المسيحي فينظر على العموم إلى الكبالا على أنها إحدى الحركات الباطنية التي تسللت إلى معظم الكنائس المسيحية المتعددة، كما يرى بعض رجال الدين المسيحي أن الكبالا حركة تضم عدة اتجاهات منها: القائلون بتناسخ الأرواح، والسحر، والمخرج النجمي، وعلم التنجيم والأعداد، والقائلون باثنين وسبعين اسما للإله وغيرها. [9]

وبحسب المستشرق الفرنسي اليهودي George vajda (1908-1981م) فإن هناك عوامل وأسباب عدة ساهمت في تشويه صورة الكبالا واتخاذ موقف سلبي منها ومن معارفها وهي:

-رأى بعض الدارسين في القرون الوسطى في الرؤى والنبوءات الكبالية نوعا من الانحراف عن اليهودية الأصيلة.

-النظرة الاشمئزازية المتجذرة نحو التيار الصوفي اليهودي في أوروبا والذي كانت تمثله الحركة الحسيدية في بولونيا وأوكرانيا.

- الدراسات الغربية التي وضعها بعض المفكرين والفلاسفة عن الكبالا والتي كانت في مضامينها تفتقد العلمية والدقة والموضوعية.

-الدور الذي لعبته الكبالا اللوريانية في القرن 16 و17 الميلادي في تقديم صورة مشوهة عن الكبالا والتصوف اليهودي على العموم. (10)

وتأسيسا على ما سلف فالكبالا هي التعاليم الباطنية والصوفية في اليهودية، وهي على العموم كما يعتقد الكباليون حكمة خفية حافظ عليها اليهود مُشافهة جيلا بعد جيل منذ عصر الآباء اليهود. وتُعنى تعاليم الكبالا بدراسة الإنسان من حيث الوجود، والمآل، والغاية من وجوده؛ قَصد التدرج من عالم الماديات لبلوغ عالم الروحانيات والوصول بالإنسان إلى مرتبة الإنسان الكامل في عالم اللانهائي والمطلق أي: الله. وقد لقيت هذه الحكمة نفورا ورفضا من لَدُن بعض التيارات المُحافظة في النِطاق الديني اليهودي والمسيحي.

ثانيا: أنواع الكبالا

بشكل عام تنقسم الكبالا إلى عدة أنماط هي:

1/ **الكبالا النظرية:** وهي التي تهتم بشكل أساسي بالأبعاد الداخلية للواقع، وتستقطب هذه الكبالا اهتمام معظم الكباليين، ومن أهم انجازاتها كتاب الزُهر الذي وضعه Rabbi Shimon Bar Yochai ثم نشره الكبالي R. Moshe De Leon في القرن 13م.

تمّ تطوير الكبالا النظرية على مر العصور وفي مراحل متعددة، وقد تطورت عبر ثلاث مراحل كبرى وهي:

أ/ عصر نشر كتاب الزُهار وأفكار قبالة ذاك الجيل ومن تلاه.

ب/ عصر متصوفة القرن السادس عشر ممن عاشوا في صفد (فلسطين)، وتشتهر هذه المرحلة بمرحلة النهضة الكبالية العظمى، وذلك بفضل التعاليم العميقة والممنهجة ل R.Moshe Corodovero (1522 -1570 م) والمعروف باسم Ramak، وبشكل خاص R.Yitzchak Luria (1534-1572م) أو ما يعرف بالقبالا اللوريانية.

ج/أما التطور الثالث لهذه القبالا فكان على يد R. Yisrael Ben Eliezer (1698-1760م) والمعروف ب "بعل شوم طوف" مؤسس الحركة الحسيدية، وإليه يعود الفضل في توجيه التعاليم الكبالية إلى يومنا هذا.

2/ **الكبالا التأملية (الروحية):** وتهتم بالعوالم الروحية، والنفوس، والملائكة، والتأمل وما شابه؛ وهدف هذا النوع من الكبالا تدريب الشخص الذي يدرس الكبالا لبلوغ حالات سامية من الوعي قد تصل به إلى حالة التنبؤ بالمستقبل من خلال القراءة المستبطنة للأسماء الإلهية ورمزية الحروف وغيرها. وكان من أهم مؤيدي وممارسي القبالا الروحية في القرون الوسطى إبراهيم أبو العافية R. Abraham Abulafia (1240-1296م). (11)

3/**الكبالا** التي تعتمد على السحر إذ يعتقد أتباعها أن لهم القدرة على تغيير مسار الكون والتأثير فيه، ويستخدم هؤلاء التعاويذ والطلاسم والأسماء الإلهية والتمائم والأختام السحرية وغيرها من الممارسات الباطنية. وقد تعرضت هذه الأخيرة للانقراض بسبب خطورتها، كما يُعتقد أن ما حل بأعظم علماء الكبالا السحرية R. Joseph Della Reina (1418-1472) [12] أثره في تحريم هذا النوع من الكبالا لجميع الأغراض والمقاصد. [13]

وقد حاول Moshé Idel (ولد عام 1947) وهذا بناء على بعض المعايير الظاهراتية؛ توضيح الاختلافات بين الاتجاهين البارزين في الكبالا على مر تاريخها –ونعني بهما الاتجاهين الأولين-؛ إذ هناك التيار الثيوصوفي اللاهوتي، وتيار الشطحات المنتشية. يعتمد الاتجاه الأول على الكوسمولوجيا (علم الكونيات) ومعرفة الدور والبناء الوسائطي والأنطولوجي للسيفيروت، لإشراك الكبالي في طقوس وممارسات باطنية تتأسس على التواصل بين الكون والإنسان، أما الاتجاه الثاني فيتجه مباشرة نحو الإنسان من حيث انفتاحه على التجربة الباطنية المنتشية والنبوية بمختلف أشكاله. [14]

ثالثا: كتب الكبالا

يعتمد التعليم الكبالي إلى جانب اعتماده على بعض الأسفار من التناخ وأهمها سفري التكوين وحزقيال مصادر متعددة منها:

1/**كتاب الزُّهار זֹהַר**: الذي وضعه Rabbi Shimon Bar Yochai الربي شمعون بار يوحاي الذي عاش في القرن الثاني للميلاد كما تذكر التقاليد اليهودية، وهو عبارة عن جمع لأهم تعاليمه خاصة التي قدمها قبل وفاته، وهو نص آرامي جُمع في ثلاثة أجزاء. [15]

غير أن دراسات جرشوم شوليم(1897-1982م) أثبتت أن واضعه الحقيقي هو موسى الليوني أي في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، إذ يتضمن هذا المصنف أصداء التوجهات الفكرية للغرب الإسلامي ومحيطه المسيحي. (16)

والموضوعات الأساسية التي يعالجها الزُهار هي: طبيعة الإله وكيف يكشف عن نفسه لمخلوقاته، وأسرار الأسماء الإلهية، وروح الإنسان وطبيعته ومصيره، والخير، والشر، وأهمية التوراة، والمشيحانية. (17)

2**/ سفر يتزيرا ספר יצירה – sefer Yetzirah**: أو سفر الخليقة؛ من أقدم الكتب التأملية باللغة العبرية، وله ثلاث إصدارات منقحة: قصير، وطويل، وآخر يسمى بالتنقيح السعدي نسبة لسعديا الفيومي (882-942م) أحد أهم جاؤونيم القرن العاشر الميلادي ممن قام بالتعليق عليه، وقد اختلف الدارسون في تاريخ جمعه ما بين القرن الثاني والسادس الميلادي، في حين أرّخ له البعض بالقرن الثاني عشر في وسط إسلامي، ويُعد هذا الكتاب خلاصة إنتاج أدبي متعدد المصادر خضع لإعادة صياغة وتنقيح جد مُعقد، وتحوي مُعظم إصداراته ستة فصول؛ يشرح في الفصل الأول "السيفيروت العشر" هذا المصطلح الذي اشتقت منه الكبالا مفهوم المراحل الميتافيزيقية لعملية الخلق، أما باقي الفصول فتتحدث عن رمزية وقوة الحروف العبرية الاثنين والعشرين، (18)وكذا استخداماتها على مستوى الجسم وأجزائه وعلى مستوى الأيام والشهور والسنوات وما إلى ذلك، ويتكون هذا السفر من حوالي 1800حرف عبري، ورغم قصره فإنه حسب الكبااليين يقدم معلومات قيمة حول عملية الخلق. (19)

والحروف العبرية حسب التقاليد اليهودية تساعد على تشكيل Golem بواسطة الغبار، وهو عبارة عن كائن يشبه الإنسان، ويتحرك هذا الكائن بفضل سلطة وقيمة الحروف

العبرية، غير أن هذه الكائنات التي يصنعها الربيون الأتقياء تظل صامتة؛ لأنه ليس في مقدور غير الله خلق إنسان. (20)

3/ سفر هاباهير סֵפֶר הַבָּהִיר: هذا الكتاب مجهول المؤلف، غير أنه يعد أول الكتب التي اعتمدت الرمزية في الأدب الكبالي، وامتد من القرن 13 حتى القرن 16 للميلاد، وينسبه البعض للتلمودي المعروف Rabbi Nehunya ben ha-Kana (عاش في القرن 2 م) بسبب شكله الأدبي الشبيه بأدب التلمود والمدراشيم، ولغته مزيج من العبرية والآرامية، ويغلب عليه الغموض بسبب لغته الرمزية وعدم اكتمال بعض أجزائه. وتكمن أهمية هذه الرسالة في تضمنها مفردات رمزية تعتمدها جميع الكتب الكبالية؛ وقد استخلصت هذه المفردات من التفسيرات التناخية، والتي تنطبق في المقام الأول على السيفيروت (قوى الله الخَلقية) المرموز لها بشجرة الحياة والحكمة. وهناك صلات بين مفهوم السيفيروت ونظرية الغنوصيين في الدهور الإلهية، ولم يتم إثبات ما إذا كان هذا التشابه يعكس روابط تاريخية حقيقية بين مصادر سفر هاباهير والأدب الغنوصي، أم هي مجرد ظواهر متشابهة تطورت بشكل عفوي في بيئتين متوازنتين. (21)

4/ **Pardès Rimonim** : يتسم هذا الكتاب بالوضوح والبساطة، ويضع Moshe Cordovéro (1522-1570) كاتب هذا السفر المسارات والطرق 32 التي تقود إلى اكتشاف الكبالا، من خلال توضيح السبل المؤدية للرذيلة وضرورة الابتعاد عنها، كما يشرح رمزية الحروف العبرية، ويقدم بعض النصائح عن الصلاة. (22)

مما مرّ معنا يتضح أن الكباليين يُبجلون التناخ إلى جانب اعتمادهم بشكل جلي على سفر الزُهار وبعض الأسفار الأخرى كسفر يتزيرا والهاباهير وباربديس ريموران وغيرهم.

رابعا: تاريخ التصوف اليهودي والكبالا

يمتد التصوف اليهودي بجذوره التاريخية إلى ما جاء في الكتب المقدسة اليهودية عن حياة الأنبياء ومسارهم الروحي، منهم إبراهيم عليه السلام وموضوع العهد الموثق بالأضحية والختان، وفي قصة موسى عليه السلام والنار المشتعلة وحضوره أمام الذات العلية في طور سيناء، وفي رؤيا عربة حزقيال (حزقيال 15/1) وما يسمى بالميركافا، وفي معراج يعقوب بصعوده السُّلم أثناء حلمه في بيت إيل (تكوين 12/28 -13)، وصعود إليا النبي فوق سحابة من السماء وغيره من الأنبياء، وأيضا محاولة بعض التنائيم (أي علماء المشنا – التلمود).[23]

وتُعد الكبالا أهم حركة صوفية في اليهودية وأكثرها تأثيرا، وقد ظهرت في فرنسا ثم اكتسبت نفوذا كبيرا في إسبانيا في القرن الثالث عشر. ورأى الكباليون أن كل الحروف والكلمات والأرقام التي حَوَتها الكتب اليهودية المقدسة تنطوي على معان خفية لا ينكشف لها إلا بواسطة الحكمة الإلهية التي تقوم على التأمل.[24]

غير أن معظم اليهود يرون أن أصول الكبالا ظهرت في العهود التلمودية وحتى القرن العاشر والحادي عشر، وفي المؤلفات التفسيرية وكتب الأخبار، وفي تراث أعلام التلمود في العراق وفلسطين، ثم استمرت الحركة الكبالية لدى حركة الحاسيدوت أو الحاسيديم في العصر الحديث حيث ظهرت في أوروبا الشرقية[25] بزعامة إسرائيل بن إليعازر (1700-1760م) والمعروف ببعل شيم توف. واجتذب ابن إليعازر بما امتلك من قُدرات عجائبية وحالات من الطرح الروحاني والنشوة الدينية جماعة من المُريدين الذين انضموا إليه وشاركوه حياة الزهد والانقطاع والتأمل والصلاة. وكانت حياة الحاسيديم حياة نقاء وتقوى، وولدت الحركة عدة شخصيات أسهمت في تجسيد هذا المبدأ والارتقاء به إلى درجة رفيعة. وحمل الزاهدون محبة حارة لله وللإنسانية على أمل الدخول في تجربة القرب المباشر من

الوجود الإلهي في الخليقة كلها. غير أن الحاخامات التقليديين رفضوا مبدأ التركيز الذي وضعه الزاهدون على الأشخاص الدينيين المباركين كوسطاء بين الله والناس. (26)

ووفقا لتقاليد الزُهار أُخفيت أسرار الكبالا في القرن الثاني الميلادي، وظلت سرية لمدة ألف عام إلى أن قُدّر لها تُكتشف في القرن الثالث عشر للميلاد، وهذا الفَهم وطّد للفكر الصوفي من خلال الكبالا نظاما بديلا للخلاص والحرية المرتبطة ب sitra dekdusha (قوى القداسة) وshekinah (الحضور الإلهي)، إذ حولت الكبالا المصير التاريخي المفروض على اليهود من خلال الشتات، إلى نظام روحي بديل للخلاص ولمّ شمل الشعب، وبذلك أصبحت الكبالا من خلال استجابتها الروحية للتغيرات التاريخية المَنْفذ الوحيد أمام المجتمع اليهودي الذي لم يكن يملك آنذاك سلطة سياسية أو عسكرية، وهو ما عنى بالنسبة للعديد من اليهود بروز مرحلة الخلاص على يد المسيح المنتظر. وعلى إثر ذلك استنتجت محافل الكبالا أن الخلاص آت على يد من يدرسون الزُهار بمنظور أخروي إلى جانب إنكار الاهتمامات الدنيوية، وبشكل مماثل كان مجيء المسيح المنتظر مشروطا مُسبقا بشكل حصري بانتشار الكبالا. (27)

تمتد جذور التصوف اليهودي إلى عصر الأنبياء الآباء، غير أن الكبالا تُعد أهم مظاهر التصوف اليهودي الذي ظهر حسب بعض المؤرخين في إسبانيا في القرن 13 م، ثم انتشر فيما بعد في بولونيا وفرنسا وألمانيا وبعض الدول الأوروبية؛ إذ رأت هذه الحركة في ظاهر النص الديني العبري معانيا باطنية خفية لا يُنصت لها ولا يراها إلا عالم الكبالا. غير أن مُعظم الكباليين يعودون بجذور الكبالا إلى عصر الآباء والمرحلة التلمودية؛ لتختفي هذه الحكمة لِحِين من الزمن لتظهر في القرون الوسطى وتتطور هذه النزعة وتستمر مع الحاسيدية.

خامسا: المؤثرات الأجنبية على الكبالا

إن المتأمل في الفكر والميراث الأدبي الكبالي يلمح دون شك بعض المصادر الأجنبية عن الفكر اليهودي الخالص يتضح هذا الأمر من خلال المؤثرات التالية:

1/ الهندوسية:

تظهر فكرة تناسخ الأرواح بشكل جلي في الزُهار والكبالا اللوريانية، وبحسب ما جاء في التراث الكبالي، كانت أرواح كل البشر جزءا من آدم قدمون (الإنسان الأول أو الكامل)؛ وتُعد عقيدة التناسخ من أهم العقائد الهندوسية التي أورثتها للكبالا، والتي تُعرف في العلوم الكبالية ب "جلجول نشموت" Gilgul Neshamot، وفكرة التناسخ غير مذكورة في التوراة بشكل صريح كما يعتقد الكباليون؛ غير أن كتاب الزُهار يزخر بهذه الأفكار منها Parashat Mishpatim. وقد ناقش الكباليون فكرة التناسخ ثم توسع فيها الحاخام يتسحاق لوريا في كتابه Shaar Ha Guilgulim أي بوابة التناسخ، ويشرح لوريا من خلال هذا الكتاب أنه كان لأدم عليه السلام (آدم قدمون) روح كونية تمثل مظاهر جميع المخلوقات –ونعني بها الجزء الملائكي والحيواني–، وفي تلك المرحلة كان آدم بمثابة انعكاس مُصغر للكون، كما ضمت روحه أرواح جميع البشر في وحدة متسامية وأعلى. لكن بعد أكل آدم عليه السلام من شجرة الحياة ومعرفة الخير والشر تشظت روحه إلى مجموعة من الأرواح أخذت هيئة جسدية مادية، وعلى عاتق هذه الأرواح تقع مسؤولية الإصلاح للعودة بالبشرية إلى نقاوة الإنسان الأول أي آدم قدمون.[28] وبذلك يكون آدم الأولي اقترف خطيئة أدت إلى اغتراب روح البشر عن الإله، وروح كل إنسان جزء من روح آدم، ومن هنا فإن كل الأرواح تشارك في حالة السقوط والنفي. فإن اقترف الإنسان آثاما في حياته، فإن روحه تتجسد في

أشكال أدنى من الحياة، ولذا، يتعين على الإنسان أن يفعل الخير كي تحل روحه في أجساد الأبرار، كي تصل الروح إلى حالة الإصلاح "تيقون".(29)

وعلى ضوء ذلك لا بد من فهم مدى أهمية احتفاظ آدم بوحدة الروح الكونية قبل الأكل من شجرة المعرفة، وانقسام الروح الكونية إلى شظايا أرواح مُبعثرة في أجساد متعددة حسب المعارف الكبالية والتي تتجلى من خلال السببين التاليين:

أ/ أنه بوجود روح كونية واحدة من الاستحالة التمييز بين الأرواح الفردية، وهو ما لا يمكن حدوثه بعد تعدد الأجساد وتشظي الروح الكونية؛ لأن الإنسان في هذه الحالة يستطيع أن يصل إلى الوحدة الكونية للروح السامية، لكنه يحتفظ بالفردانية المكتسبة في حياته المادية الأرضية.

ب/أن الأرواح المتجزئة تلعب دورا صغيرا ومُهما في نفس الوقت في عملية الإصلاح، ولكنه أسهل مقارنة بالروح الكونية، بحيث تتكفل كل روح جزئية من روح آدم الكلية بإصلاح نصيبها كي تعود للوحدة الكلية للروح الكونية السامية.

ويرى لوريا أن هناك نوعا آخر من الجلجول أي التناسخ بحيث بإمكان أن تسكن عدة أرواح جسدا ماديا واحدا ويسميها تناسخ Ibur Neshamot، إذ وخلافا لما يُعتقد ويسود في عملية التناسخ من حلول روح الجسد الميت في جسد آخر، فإنه في حالة Ibur فإن روح جديدة تعتري جسدا حيا خلال حياته، وهو ما يُفسر التغيرات الجذرية التي تحدث لبعض الأشخاص في حياتهم لأسباب عدة تؤدي بهم إلى الارتقاء الروحي.

ويقع التناسخ على الحيوان والنبات وكل المخلوقات حتى الجامدة منها ممن تمتلك في المعتقد الكبالي أرواحا، ويكون تجسد الروح البشرية في هذه المخلوقات الدنيا بمثابة عقاب

على ما اقترفته من خطايا، وبعد رحلة طويلة وشاقة يمكن لهذه الروح أن تتجسد في كائن بشري؛ لتتطهر بذلك وتتدرج في طريق الإصلاح والعودة إلى منبعها الأول. (30)

ونفس هذه المعتقدات نجدها في الهندوسية والبوذية من خلال فكرة التناسخ المستمر للروح الإنسانية وتَدَرُجها في معارج الفضيلة والرذيلة، حتى ترتقي إلى الروح الأسمى عن طريق الموكشا لتحدث النرفانا باتحاد الإنسان ببراهما عبر رحلة طويلة من المعاناة والتطهير المستمرين.

كما نجد في فكرة التجليات المتعددة للإله الواحد نوعا من التقارب مع التجليات الهندوسية للإله الواحد براهمان –الذي لا يُمكن الإحاطة به أو معرفته– في آلهة متعددة تُجسد جزءا من روح المطلق اللانهائي؛ فمن خلال إقرار الكباليون بوجود جوانب متعددة من الألوهية وهم السيفيروت (أي التجليات العشرة للألوهية)، وذلك بتمييز مظهرين من مظاهر الألوهية، أحدهما متجلّ وآخر غير متجلّ وهو اللانهائي أي "سوف" حسب المصطلح الكبالي وشجرة الحياة، مما يشير إلى الثنائية في الألوهية ويُبعدنا عن التوحيد الإلهي. (31)

ومن هذا التصور يظهر التأثير الهندوسي على الكبالا ، إذ نقف على فكرة التجلي للإله الأوحد والمُطلق الهندوسي "براهما" من خلال الآلهة والأرواح المتعددة باعتبارها تجليات متعددة للإله الأوحد.

2/الزرادشتية:

شجع الكباليون على الفهم الثنائي الذي يرى العالم على أنه مقسم بين مجالي القداسة أي الخير والشر، فقام الكباليون بدراسة الكتب المقدسة على أنها تعبير عن الصراع بين ما هو دنيوي وما هو مقدس، وفسروا الوصايا على أنها تعكس فهم الواقع الثنائي لطبيعة الكائنات.

[32]وهو ما يُثبت تأثر الأحبار اليهود ببعض الآراء الشرقية كالزرادشتية الفارسية، فخرجوا بمجموعة باطنية من الحكم تتعلق بأسرار الكون والإله والكائنات، مع إبقاء هذه النزعة على جوهرها الموسوي، ويظهر الأثر الزرادشتي في فلسفة الكبالا من خلال كتاب الزُهار، الذي يرسم الحياة في شكل صراع دائم بين الخير والشر، وكلاهما يخدمان غاية مقدسة، وكل عمل خير وكل صلاة حارة تبعث قوة روحية تؤدي إلى انتصار الخير على الشر، ذلك الانتصار الذي سوف يظهر بكل جلاء مع ظهور المسيح المنتظر. [33]

3/ الغنوصية:

تبنت الكبالا نظرية الفيض من خلال النسق المغلق في الرؤية الكبالية عن خلق العالم، إذ إن الخلق وُجد بفعل الفيض الإلهي؛ أي أن "الإين سوف" (اللانهائي، اللامحدود...) الذي لا يستطيع العقل الإنساني الإحاطة به. ولكن "الإين سوف" هو أيضا "الآيين" (العدم، الإله الخفي. .) الذي لا يمكن أن يكون إلها بالمعنى المألوف، ولا يستطيع الإنسان أن يصل إليه، ويشار إليه أيضا "المطلق" الذي يقطن في أعماق العدم، وقد انبثق " الآني" (الأنا الإلهية) عن الآيين. ومن هذه المرحلة تبدأ مرحلة الفيض الإلهي التي تنبثق من الإرادة الإلهية "سيفيروت" أو التجليات النورانية العشرة. [34]هذا القول بالتجليات نجد ملامحه أيضا في الهندوسية في قولهم بأن براهما خالق الأكوان له تجليات عدة من خلال تعدد الآلهة والأرباب فيها.

وفي الأخير وإن أنكر علماء الكبالا المُبرزون تأثر علومهم بالروافد الفكرية والدينية للشرق القديم فإن المفكر والمؤرخ اليهودي المغربي حاييم الزعفراني يؤكد هذا الأمر إذ يقول: "ونشير أيضا أن هذه الآداب –ويقصد الآداب الكبالية– استطاعت أكثر من غيرها من أنواع التعبير، أن تجتاز حدود الفكر اليهودي المحدود، لتنفد امتدادات وآفاق أبعد وأشمل. وقد تضمنت هذه الآداب التي استفادت من حضارات أجنبية، بطرق كثيرة ومختلفة، عناصر

خُرافية وألوانا أسطورية مما عرفته الثقافات المختلفة كالفارسية والبابلية والهيلينية واللاتينية بل المصرية والهندية ". (35)

وهكذا نجد أن روافد فكرية وروحية وعقدية عدة أسهمت في تشكل الكبالا والتصوف اليهودي على العموم خاصة ما تعلق فيها بمسألة التناسخ والتجليات الإلهية والفيض الإلهي وثنائية الصراع الأبدي بين قوى الخير والشر ، وإن كنا نرى أن في صراع قوى الخير والشر مَسلك جميع الأديان مع تعدد وتنوع تعبيراتها عن الأمر. على أننا لا نرى ما يعيب هذا التأثير والتأثر بين الأديان في جوهر الدين وهو محبة الله اللانهائي والمطلق، كون الروحانيات عالم خصب له المقدرة على تحقيق أُفق التعايش بين البشر، ضف إلى ذلك فإن هذا الأمر ونعني به التقاطع في المظهر الروحاني للأديان لا يُعدم وحدة التجربة الروحية للإنسان على مرّ تاريخه.

المطلب الثاني: مدارج الروحانية الكبالية

أولا: طريق الروحانية الكبالية

يعتقد الكباليون أن علم الكبالا يساعد الإنسان ليس فقط على مواجهة مصاعب الحياة اليومية، بل يقدم الأسئلة لأجوبة الحياة الأساسية؛ ونعني بها ما سبب وجود الإنسان ؟ولماذا يعيش في هذا العالم ؟وأين يذهب بعد انتهاء أيام حياته ؟ كما يقدم للإنسان بداية المرحلة التي يستطيع من خلالها الارتقاء إلى ما وراء مستوى حدود العالم المادي؛ فعلم الكبالا يمنح لكل من يبحث عن أجوبة الحياة المعرفة بكامل بنيتها وتفاعلها مع الإنسان وتأثيرها عليه. ويعتقد الكباليون أن كتاب الزُهر ومقال شجرة الحياة والعديد من المصادر الكبالية الأخرى وُجدت لتعلم الإنسان المعرفة والقدرة على إحراز العالم الروحاني والبحث فيه وفي دراسة بُنيته وقوانينه والقوات التي فيه. وعلم الكبالا يشرح للإنسان العالم الروحاني من

خلال دراسة تفصيلية للمخطط البياني للكون، ويعلمه كيفية الحصول على الحاسة السادسة التي يستطيع بها الإنسان الإحساس بالعالم الروحاني، ولذلك يهتم هذا العلم بالبحث في العالم العلوي، باعتبار أنه مصدر الأحاسيس والأفكار، كون الإنسان لا يستطيع معرفة الأحاسيس والحصول عليها من تلقاء نفسه، فيتدخل هنا علم الكبالا ليساعد الإنسان في التعرف على كل نوع من أنواع الشعور الإنساني ليستطيع فهم أحاسيسه. (36)

وتُعد فكرة الحب الخالص مُصاحبة للجنس البشري منذ تكوينه الأول، إلا أن عوامل عدة منها الكِبر والغرور والأنانية أبعدته عن فطرته الأولى، وهو ما يستدعي يقظته من سُباته والعودة إلى مدارج الصفاء والنقاء، ويكون ذلك بضرب الله على قلوب البشر باعتبار أنها كائنات روحية انبثقت عن اللانهائي. والكبالا حسب الكباليين من علماء الزُهار تسعى لمحاربة الأنانية والكِبر الذي تسلط على بني البشر منذ ما يربو عن آلاف السنين؛ وتحديدا مع البدايات الأولى لظهور الجنس البشري في بابل و تحديه لله؛ هذا السقوط أخلّ بالنظام البشري وأبعده عن نقاءه ومصدره الأول أي اللانهائي، وخلق العداوة والفُرقة بين بني البشر، إلى أن ظهر إبراهيم عليه السلام الذي استطاع أن يُعيد صلته باللانهائي، فنادى بمبدأ الحب الحقيقي الذي يمكن الإنسان من الارتقاء إلى بُعد جديد في الوجود ينبع من حب الإنسان، وبذلك يكون إبراهيم هو أول الكباليين حسب سفر يتزيرا، ثم توارث أسرار الكبالا الأجيال من الأحبار الكباليين.

ومن مهام الكبالا مساعدة الإنسان على خوض تجربته الروحية عبر هتك أستار الغشاوة التي يحجبها العالم المادي بالتزام بعض التعاليم والقوانين، ومن أولى القوانين التي يقرها الكباليون قانون "الجذر والفرع"، هذا القانون الذي يقر أن كل ما يحدث في العالم المادي هو استنساخ لما يحدث في العالم العلوي. ثم قانون الحب؛ ففي العالم الروحي يسود مبدأ الحب

القائم على المنح والعطاء على خلاف الإنسان العادي الذي يهتم لمصلحته الخاصة، وعلى غرار ذلك باستطاعة الإنسان الارتقاء إلى مستوى روحي أعلى بالتعبير عن الحب الحقيقي من خلال حب الإنسان لغيره كنفسه .

كما يعلم الكباليون أن هناك خارج الإنسان قوة واحدة تسمى الخالق وهو من يجلب لنا وفرة من الحب اللامحدود، ولكشف النقاب عن الخالق لا بد من مرور الإنسان بمراحل عدة من التطوير الداخلي عبر دراسة الكبالا. (37)

ويرشد علم الكبالا الإنسان إلى إحراز العالم الروحي بتوسيع رغبته في كيفية الأخذ والتقبل، وذلك بتعليمه سُبل امتلاك القدرة على احتواء العوالم ومن ضمنها العالم الأرضي، باعتبار أن هذا هو أهم هدف خُلق لأجله الإنسان، ولا يعني هذا هجر العالم والتفرغ للتنسك والعبادة، إذ لا يوجد في العالم ما يجب هجره؛ لأن كل شيء في العالم وُجد لهدف معين.

ففي بداية تلقي التعاليم الكبالية من الممكن ألا يكون للإنسان الإحساس بالأمور الروحية، لذلك يباشر دراسته في البحث معتمدا على قدرته العقلية بشكل تام في محاولة فهم وتحليل الأمور الروحية، وباستخدام القدرة العقلية يستطيع الإنسان فتح قلبه للإحساس بالعالم الروحي، ومن خلال نمو هذه الأحاسيس في القلب يستطيع الإنسان معرفة وفهم الأمور بشكل واضح ويُصبح قادرا على التمييز بين الصواب والخطأ لانتهاج السلوك الحسن الرفيع.

ويبدأ علماء الكبالا بتعليم الأمور الروحية بهدف توسيع قدرات المتعلم على تقبل النور ولرفع مستوى الإدراك والإحساس بالعالم الروحي؛ لأن رفع مستوى الإدراك من شأنه أن يرفع من قدرة الإنسان على التعمق في الفهم، وهكذا يستطيع الإنسان إحراز أعلى الدرجات في العالم الروحي وحتى إلى مستوى جذور النفس الإنسانية . (38)

كما يعتقد الكباليون أن جميع التيارات الروحانية في العالم لا تستطيع أن تُحرز للإنسان عالمه الروحي بسبب مصدرها الإنساني، في حين تتميز الكبالا عما سواها من الاتجاهات بمصدرها الإلهي، لذلك لا يستطيع الإنسان ولوج عالم الروحانية إلا عن طريق حكمة الكابالا وأحد مُعلميها، هذه التعاليم تُمكِّن الإنسان من إحراز الحاسة السادسة. وتركز الكبالا على العمل من داخل النفس البشرية، فمن خلال اكتشاف الإنسان لنفسه يستطيع إحراز العالم الروحاني والوصول إلى الأبدية والكمال الإنساني. وحكمة الكبالا لا تُلزم أتباعها على إبطال أو إلغاء الأنا ورغباته، كما لا تتضمن أي شرط للإجبار على الصوم أو التنسك في كبح الشهوات وإماتة الجسد، بل على العكس يقر برغباته وأنانيته، وعليه تحويلها إلى إناء يستطيع تلقي النور لمساعدته في الوصول إلى هدف الخليقة النهائي، ولذلك يتوجب على الإنسان قراءة الكتب الكبالية لمعرفة طبيعته، وحتى لو شعر بأنه لا يستطيع فهم أي جزء من هذا العلم، ولكن في اللحظة التي يفتح فيها الشخص أي من هذه الكتب يحس بتأثيرها على قلبه ونفسه من النور التي تحتويه الكلمات في طياتها، أي أن في قراءة الكتب الكبالية يجتذب الشخص النور من الأعلى ويشعر فيه في داخل نفسه؛ لأن الهدف من الدراسة هو إيقاظ الحواس الروحية التي كانت تعاني من حالة السُبات، وعندما ينفتح القلب والنفس تتحرك في الإنسان المشاعر الداخلية وتصحو لديه الرغبة في معرفة الواقع الذي يعيشه. فالنفس البشرية نشأت في عالم "إين سوف" وانحدرت من خلال العوالم الخمسة "آدم قدمون، أتسيلوت،بِريا، يتزاريا، عاسيا"، وفي وصولها إلى العالم المادي ألبسها الله جسدا ماديا كي تستطيع العيش في عالم المادة. وفي هذا العالم المادي يكون إحساس المخلوق بالخالق منعدم، وبما أن الخالق في هذه الحالة يكون في حالة توارٍ تام عن المخلوق، وبسبب هذا الاحتجاب يشعر الإنسان بالقلق وهو ما يُثبت له وجود الخالق وبأنه يستطيع الإحساس به، مما يدعوه

لإيقاظ هذا التوق نحو الخالق وتحطيم الأنانية في النفس الآدمية أو ما يعرف في التعاليم الكبالية ب"تحطم الإناء" أي الرغبة. ونتيجة هذا التحطم وُجدت إمكانية الدمج بين سمة التقبل التي في المخلوق مع سمة العطاء التي في الخالق. وبسبب هذا الدمج حاز الإنسان على القدرة في الاختيار بين الصالح والطالح. ومن هنا تبدأ مرحلة الإنسان في تطوير أدوار حياته المختلفة فيما يُدعى "بتصحيح الإناء "، وتأخذ عملية التصحيح هذه مجراها تحت سُلطة العناية الإلهية. وعند الوصول إلى نهاية التصحيح يرتقي الإنسان إلى أعلى درجات النور والتي يحصل فيها على التوازن الشكلي التام لسِماته مع سمات الخالق من عطاء مطلق، وهي المرحلة التي يتوصل الإنسان إلى الشعور بالخالق والالتصاق به. (39)

ومع إفصاح الكباليين لعلومهم بدأت تنتشر في العالم الغربي بعض المدارس لتدريسها، إذ تقوم إحدى هذه المدارس بتقديم دروس عدة حولها؛ منها تقديم تأمل شجرة الحياة. فبالنظر لشجرة الحياة نجد عشر سيفيروت على شكل دوائر وداخل كل دائرة حرفها العبري المناسب مع ما يحمله من رمزية ودلالة، ثم المسارات الداخلية من 11 حتى 32، وعند تقدم الكبالي للتأمل الخاص بشجرة الحياة، يُقدم المرشد (المعلم) بعض الإرشادات فيما يخص هذه العملية؛ من بينها: أن يطلب المعلم من المتلقي الوقوف بشكل مستقيم نحو الشرق أو تخيل فعل ذلك، مع إسدال اليدين والاسترخاء، كما للتلميذ أن يتخيل جلسة اللوتوس (أو ما يعرف بوضعية padmasana في اليوغا وفي البوذية)، ثم يبدأ رحلته نحو حالة تأمل شجرة الحياة، فيُطلب من التلميذ أن يقول ملكوت (وترمز للرقم 10 على شجرة الحياة)، ثم يتخيل سفروت بألوان الأرض تحيط به تَحمل عبء جسده (لتنتزعه من عالم المادة)، وتمثل هذه السفروت الجانب المادي في الإنسان، ثم يطلب منه ترديد كلمة "taw" (وتمثل الطريق 32 من شجرة الحياة) وعليه أن يتخيل وصول شعاع من الضوء النيلي يخرج من الأرض

ليصل منطقة أعلى الكليتين، ووظيفة هذا الاشعاع العمودي إيصال المتلق للعلوم الكبالية الخبرات الحسية، وتستمر العملية على نحو مُضطرد مع باقي السيفروت العشرة والطرق 32.

(40)

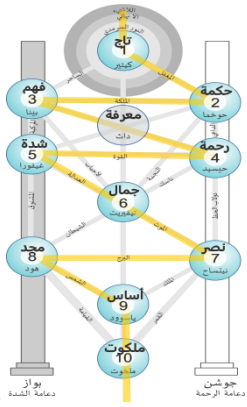

رسم توضيحي لشجرة الحياة في الكبالا. (41)

ويبدو أن المتصوف اليهودي لم ينشد الاتحاد أو الحلول مع الله بقدر ما كان ينشد التقرب والعشق والالتصاق بالله أو ما يُطلق عليه في الكبالا "الديقوت" ، وذلك بإعادة بناء الوحدانية الإلهية التي دمرتها الخطيئة الأولى، وبإعادة التناغم الكوني، وهو ما يرتبط بمجيء المخلص المنتظر. ولذلك فعلم الكبالا يقوم على ثلاث مُكونات، يُعبر عنها في العبرية بالمصطلحات "يِحُّود " أو الاتحاد، و"تيقون" أي تقويم، و"كِؤولَة " أي الخلاص. وعليه فإن الاتحاد لا يتمثل تمثُلاً حقيقيا ويبلغ غايته إلا في عالم الأخرويات، ولذلك فالخلاص في هذه الدنيا لا يكون إلا بالعودة إلى الوحدة الأصل وتوازن الكون الشامل. (42)

فالمعارف الكبالية عند أتباعها وعلى رأسها الزُهار والسيفيروت تَخُطُ طريق الإنسان الروحاني بعد أن سقط في براثن الخطيئة وغيّبته الشهوات والنزعات المادية عن قُدسيته وعن آدم قدمون، لتغمره بسُبل النجاة والخلاص الذي يكون بمحبة الله اللامحدود. وتعتبر عملية التطهير والتنقية التي يخضع لها الكبالي وفق خُطى التعاليم الكبالية السبيل الأوحد لإنقاذ

الإنسان المادي الذي حُجب عنه عالم الله الخفي غير المرئي أي " إين سوف"، ليصل بعد عملية طويلة من تطهير النفس دُعامتها المحبة للإنسان ولله أن يلتحم بالمُطلق لتتحقق عملية الديقوت.

ثانيا: مصادر صوفية وكبالية

كان الحضور الصوفي اليهودي في القرون الوسطى نشِطا وبارزا، فقد عُرف عن بعض متصوفة اليهود نزعتهم وبُعدهم الروحي من أمثال بحيي بن باقودا (عاش في الأندلس ما بين القرن 11 و12م)، إذ ذهب من خلال كتابه "الهداية إلى فرائض القلوب" إلى توضيح علاقة القلب بالإنسان، وهل يصح أن يكتفي الإنسان بأداء الأوامر والنواهي والمباح والمحظور من الفرائض الشرعية التي يحددها الدين دون أن يكون لباطنه نفس الواجبات والفرائض، ويعني بذلك النفس وما تحتاجه من طاعة قلبية لله تتجلى من خلال الإيمان بالله بوحدانيته والخشوع لذاته العلية، وهو ما يزيد بالمحبة فيه والزهد فيما عداه. لقد هدَف ابن فاقودا من خلال كتابه سالف الذكر إلى تعميق الإحساس الديني بين اليهود، وأن يشيع بينهم الدوافع الروحانية النابعة من أعماق القلب، ويغرس في نفوسهم حب التمسك بالتقوى والورع. (43)

ويشرح ابن باقودة أن الله قصد من خلقه الإنسان ترويض النفس واختبارها بالمحن في الدنيا لتسمو وتتصل بمرتبة الملائكة القدّوسين كما أشار سفر زكريا 7/3، و شاءت حكمته تعالى اختبار النفس في أجسام ترابية شهوانية، لكن بعد أن غَلُب الإنسان هواه مال به إلى الإفساد، فكان من رحمته تعالى أن أوجد الزُهد وباقي الفضائل الأخلاقية من أجل إفراد القلوب وبلوغ محبة الله عز وجلّ كونه أعلى مراتب الترقي الإنساني، وهو ما أكد عليه موسى عليه السلام في سفر التثنية 5/6: " فَتُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلبِكَ وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ وَمِنْ

كُلِّ قُوَّتِكَ"،ثم كرره وأكد عليه في موضع آخر من نفس السفر 20/30: "إِذْ تُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ وَتَسْمَعُ لِصَوْتِهِ وَتَلتَصِقُ بِهِ لأَنَّهُ هُوَ حَيَاتُكَ...". (44)

كما رأى ابن باقودة أن الطقوس اليومية وأداء الشعائر والأعمال ليست لها قيمة ذاتية روحانية متأصلة فيها، وأن العبادات لا تكون مشبعة بالقيمة الروحانية إلا إذا أديت تلك الأعمال بروح خالصة متفانية محُبة لله. كما دافع بشدة عن التجرد عن الرغبات المادية الدنيوية، والإقبال على حياة التقشف والزهد، والتأمل الانفرادية والتواصل مع الله. (45)

وقد ترك ابن باقودة أثرا في الفلسفة والأخلاق اليهودية، وقد بنى نسيجه الزهدي الأخلاقي بتأثر من أدبيات التصوف الإسلامي. وتعتمد النظرية الأخلاقية التي أعدها لليهود على المراجع والكتابات الإسلامية، بما في ذلك المواضيع التي كان بإمكانه أن يجد مادتها في التقاليد الدينية اليهودية. متخذا من التصوف الإسلامي المسلك الذي يقود الروح نحو الحب الإلهي الخالص، والاتحاد مع النور الإلهي الأسمى.. (46)

وللوقوف على الأدب الكبالي وتبيّن مدى تأثير وهيمنة نظرية الفيض عليه إلى جانب ثنائية الصراع بين الخير والشر، نستعرض هذا النص الكبالي الذي يعود إلى "يعقوب بويفركان " (عاش في القرن 17 م) يستهل في شرحه لسفر لبيرقي أبوت (47)في كتابه "زهرة السوسن" الذي يعبر عن فكر صوفي مُغرق في مذهب الكبالا، ويقدم تحليلا صوفيا للنص الديني المشنائي وفق القواعد الصوفية، فيقدم مؤلفه عرضا موسعا لعناصر التصور الكبالي حول الخلق، باعتباره فعلا وجوديا يرتبط فيه السماوي بالأرضي، وتنتفي فيه الحدود بين الوجود والمعرفة والأخلاق، مما يعني أننا أمام نظرية الفيض في صيغتها العرفانية الكبالية التي تنتهي إلى وحدة وجود شبه مُعلنة، فيقول: "...نتلو في بيرقي أليعازر: قبل أن يُخلق العالم لم يكن سوى هو واسمه الأعظم"–المشنا–، الفصل الثالث، 10 – وفي ذلك ما يدل على أنه قبل إيجاد

ISSN: 1112-4938, EISSN: 2600-6456

الأسماء الإلهية الحاملة لاسم عولام -أي العالم- لم يكن سوى الواحد الجلي روح الأرواح... منه فاضت السيفيروت...أنوار تسعة، تجلت منه كالسنا. فالقديم هو الأعظم سر الأسرار، لا يُدرك إلا من خلال الأنوار التي تصدر عنه..."، ثم يشرع "بويفركان" في وصف تفاصيل العوالم النورانية بأسمائها وفعلها في عالم الوجود انطلاقا من نظرية الفيض، ليخلص إلى خلق الإنسان مع ما يحمله من نزعتي الخير والشر. ثم ليُبين "بويفركان" أن التوراة فيض نوراني يلزم سبر بواطنها فينقل كلام شمعون بار يوحاي فيقول: اللعنة لمن يعتقد أن التوراة أوُحيت لتحكي قصصا بسيطة، أو لتُلقننا عادي الأشياء " كم هي عظيمة التوراة، وسامية مرتبتها. . وكم هو مستحيل الاعتداد فقط بقراءة حرفية نصها. . فما تقُصه ليس سوى تجلّ من لُبوس أسرارها وعلاماتها الرامزة. ."كما يولي "بويفركان" عناية خاصة بالبعد الأخلاقي في علاقته بالتدين وبقواعد الزهد، فيستحضر في مواضع عدة من تفسيره لبيرقي أبوت هذه الأبعاد، ومن الأمثلة على ذلك: "إن عدمت دراسة التوراة انعدمت الأخلاق، وإن عدمنا العلم انعدمت خشية الله " (بيرقي أبوت، الفصل 13، 7)، فيجعل بويفركان من هذه المشنا بوابة لدراسة البعد الروحي لتحصيل العلم؛ لأن في طلب العلم تمام التوحيد، ولأن رأس خشية الرب العلم. (48)

من دون شك ساهمت هذه الكتابات في إثراء النزعة الصوفية الكبالية اليهودية في القرون الوسطى، وقِوام هذه النزعة الروحية الدعوة إلى محبة الله وتنقية القلوب والوقوف ضد مبدأ الشر بتغليب نزعة الخير في الإنسان عبر تقوية الفضائل الأخلاقية وتجريد الإنسان من نوازعه المادية، ودون شك لا يُمكن أن نُعدم أثر التصوف الإسلامي وفلسفة الفيض على هذه المُصنفات الصوفية اليهودية .

الخاتمة

في ختام هذه الدراسة الموسومة ب:" **البُعد الروحي في حكمة الكبالا اليهودية** " توصلنا إلى مجموعة من النتائج نثبتها على النحو التالي:

-التجربة الروحانية الكبالية وفق مبدأ الحب الخالص جاءت مُصاحبة للجنس البشري منذ كينونته الأولى، غير أن عوامل عدة منها نزعة الكِبر والغرور أردت بالإنسان إلى الحياة المادية وأبعدته عن جذوره الروحية؛ وهو ما يستدعي حالة اليقظة والعودة إلى مدارج الصفاء والنقاء للإنسان الأول، وهذه المدارج يتسلل إليها صوت الرب بالضرب على قلوب البشر كوننا كائنات روحية بالدرجة الأولى انبثقت عن اللامحدود أي الله.

-اعتقاد الكباليين في أن طريق الخلاص والعودة إلى عالم الروحانية لا يكون إلا عبر التعاليم الكبالية؛ إذ رغم مساعي باقي الأمم في تحقيق الخلاص الروحاني، فإن كل هذه المساعي ستبوء بالفشل؛ كون سُبُل هؤلاء مُستمدة من العقل البشري، في حين أن الروحانية الكبالية يهودية المصدر والمنشأ، وهو ما يجعل الخلاص الروحاني حصرا على النخبة من الكباليين. على خلاف الطريق الروحاني عند بعض الحركات الإصلاحية في الهندوسية ك"كريشنا مورتي" وغيره، وحتى عند بعض صوفية الإسلام مما يمكن تلمسه في المولوية والأكبرية؛ فإن إمكانية الخلاص عند هؤلاء جامعة وعامة تطال كل من يبتغي طريق الله أو الروحانية مع تعدد واختلاف المشارب والديانات والأصول الاعتقادية لكل فريق.

-الفكر الصوفي الكبالي ينقسم إلى تيارين بارزين؛ تيار توحيدي يرفض تشبيه الله وتجسميه، وآخر ينزع نحو الحلولية ويرى في الله تجليات عدة أي السيفيروت العشر، مع الإيمان بالوحدوية المطلقة لله.

-ينحو التفسير الكبالي للتوراة إلى بواطن هذا الكتاب، فللتوراة نص ظاهري يفهمه العامة من الناس، وآخر باطني رمزي لا يفقهه سوى الراسخون في العلم الكبالي.

-إن هذا التصور عن دواعي استدعاء الإنسان لحالته الروحانية حسب التعاليم الكبالية، هي بمثابة ارتقاء للإنسان من العوالم المادية إلى العوالم الروحانية بحسب تصنيف الكبالا؛ وهو ما أجده يتقاطع بشكل واضح مع الهندوسية في عملية التطهير المستمر عبر حالات التناسخ ليصل الإنسان بعد دورات حياتية تناسخية قد تمتد لقرون إلى حالات الموكشا والنرفانا والاتحاد مع القوة العليا أي براهما.

-دون شك أسهمت عدة أسس عقدية فكرية كالقول بالتناسخ في الهندوسية والبوذية، وثنائية الصراع بين الخير والشر في الزرادشتية، وأخرى فلسفية حلولية وفيضية نقف على عتباتها مع الغنوصية؛ في إثراء التصوف الباطني اليهودي، دون أن ننسى الإسهام الصوفي الإسلامي في تغذية الروافد الفلسفية والخُلقية لصوفية وروحانية اليهودية في القرون الوسطى، كما قد يكون هذا التشابه مردّه وحدة التجربة الروحية في الفكر الإنساني على مر تاريخه وتطوره الديني والفكري.

وعلى ضوء ما سلف نوصي بإجراء دراسات تُتابع الأثر الإسلامي على التصوف اليهودي في القرون الوسطى؛ من حيث المفاهيم والمصطلحات وحتى مُصنفات أعمدة التصوف الإسلامي كالغزالي وابن عربي والحلاج؛ خاصة إذا علمنا اطلاع اليهود على بعض هؤلاء الأعلام إما بالإشارة أو بالتلميح أو بالأدلة المادية كاكتشاف بعض أشعار الحلاج في وثائق الجنيزة بمصر.

الهوامش:

[1]()-AD.Franck ,La Kabbale ou la philosophie Religious Des Hébreux , 3eméd, (Paris : librairie hachette ,1892),p1.

(2)-بهاء الأمير ، القبالا ينبوع الحركات السرية واليهود روح الثورات،(بدون معلومات النشر) ،ص7.

[3]()- Encyclopaedia Judaica, U.S.A, London, Jerusalem ,Thomson Gale and Keter Publisher, 2ndéd, v 11, p587.

[4]()- Encyclopaedia Britannica, New York: The Encyclopaedia Britannica company, 11thEd, 1911, v 15, p620.

(5)-Gershom Scholem, Les Origines de La Kabbale,pp5-6 نقلا عن : عبد الرحيم حيمد ، من التصوف اليهودي المغربي :" سفر بيرح شوشان "أو زهرة السوسن ليعقوب بويفركان (القرن 16-17)، كتابات شرقية في الأخلاق والآداب والتصوف والأديان ،تنسيق أحمد شحلان ، الرباط : كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، ،ط1 ،2007،ص 60.

(6)-اكتشاف أسرار الوجود (سؤال وجواب)، صاحب حكيم ، 2014، ص 40.

(7)- حكمة الكبالا ومفهومها الصحيح. www.hikmatelzohar.com 24جانفي 2022 الساعة 8.35: .

(8)-اليهودية ديانة توحيدية أم شعب مختار ، عمر مصالحة ، دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية ،ط1، 2005،ص 153 .

[9]()- L'angéologie Biblique face A La Kabbale Juive, Placide Masese Bolamu ,Edition Terabite ,2017.p86-88.

[10]()-Les Origines et le Développement de la kabbale juive d'après quelque travaux récents, Gerge vajda ,Revue de l'histoire des religions ,t134 ,n1-3, p121.

[11]()- What is Kabbalah? , A basic introduction to the Kabbalah ,DovBer Pinson, www.chabad.org, wensday,29/12/2021,H :19.06.

(12)- تقول الأسطورة اليهودية أنه حاول استخدام قواه السحرية الكبالية في تحقيق الخلاص النهائي ،فكانت نهايته مأساوية ؛إذ تختلف حوله الروايات في كونه ارتد عن اليهودية ،أو مات منتحرا ،أو أصيب بالجنون ،أو ظل يعاني من مس روحي ،مما اعتبره الكباليون تحذير سماوي ضد هذه الممارسة الكبالية في شكلها السحري .

[13]()- DovBer Pinson,What is Kabbalah? A basic introduction to the Kabbalah,op.cit.

[14]()- La Cabale, Nouvelles Perspectives, Jean Borel, Moshe Idel,, traduit de l'anglais par Charles Mopsik, 1998, Revue des Sciences Religieuses, tome 73, fascicule 3, 1999, p 385.

[15]()- 10 textes sacrés du judaïsme ,Menahem Posner. fr.chabad.org, mercredi 02/02/2022 ,14.56.

(16)-من التصوف اليهودي المغربي ،عبد الرحيم حيمد ،ص 70.

(17)-عبد الوهاب المسيري ، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، مج5، ص 282، موقع الدكتور

ISSN: 1112-4938, EISSN: 2600-6456

المسيري .

(18) – Notes on Editions of Sefer Yetzirah in English ,Don Karr , pp1-3, 1991, 1994; updated 2001-2017; revised 2018-2021, www.digital-brilliance.com, H:thursday,17.30.

(19) – kabbale,p52,www.kabbale.net /presentation,H: sunday 26/12/2021 .

(20) – Le Golem ,Bensimon Doris. Idel (Moshe), In: Archives de sciences sociales des religions, n°84, 1993 , p319

(21) – SEFER HA-BAHIR , GABRIELLE SED-RAJNA ., www.universalis.fr/encyclopedie/sefer-ha-bahir,saturday 01/01/2022,,h18.01.

(22) – kabbale,p53,www.kabbale.net/presentation, sunday 26/12/2021,H: 13:25 .

(23)–يهود الأندلس والمغرب ،حاييم الزعفراني ، ترجمة : أحمد شحلان ، الرباط ، مطبعة النجاح ، 200 ،ج1،ص ص205-206.

(24)–، تراثنا الروحي من بدايات التاريخ إلى الأديان المعاصرة ،سهيل بشروئي ومرداد مسعودي ،ترجمة : محمد غنيم ، بيروت ولندن ، دار الساقي، ط2012،1، ص440.

(25)–حاييم الزعفراني ، يهود الأندلس والمغرب ،ج1،ص ص205-206.

(26)–سهيل بشروئي ومرداد مسعودي ، تراثنا الروحي من بدايات التاريخ إلى الأديان المعاصرة ، ص434-435.

(27)–المنفى والخلاص في الفكر الصوفي اليهودي ، راشيل إليور ،مجلة مركز الدراسات المتعددة المواضيع للأديان التوحيدية ،ع4 ،2008،ص ص 14-17 .

(28) – Gilgul Neshamot-Reincarnation Of Souls, Rav Avraham Brandwein,Dean Yeshiva Kol Yehuda Zvi , Translation by: Avraham Sutton ,Israel. www.faculty.umb.edu. Saturday 05/02/2022.H: 16.26.

(29)–، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ،عبد الوهاب المسيري ، مج5، ص 433، موقع الدكتور المسيري .

(30) –Gilgul Neshamot-Reincarnation Of Souls, Rav Avraham Brandwein,Dean Yeshiva Kol Yehuda Zvi.

(31) –Les Origines et le Développement de la kabbale juive ,d,après quelque travaux récents ,Gerge vajda, p124.

(32)–المنفى والخلاص في الفكر الصوفي اليهودي ، راشيل إليور ،ص20.

(33)–أبحاث في اليهودية والصهيونية ، أحمد سوسة ، ،الأردن: دار الأمل للنشر والتوزيع،2003، ص ص 13-14

(34)–عبد الوهاب المسيري ، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، مج5، ص 256-257.

(35)–حاييم الزعفراني ، يهود الأندلس والمغرب ،ج1 ،ص 209.

(36)– علم الكبالا للمبتدئين –دليل البحث عن الحكمة الخفية –،ط3 ،2005 ، ص4-9.

37( ) - La kabbale en Toute simplicité D'Abraham Au Baal Hasoulam, Rav Michael Laitman, Israel , Laitman Kabbalah Publisher,2008, p p 11-16 ,42-62.

(38)- علم الكبالا للمبتدئين -دليل البحث عن الحكمة الخفية -، ص ص27، 31.

(39)-.صاحب حكيم ، اكتشاف أسرار الوجود (سؤال وجواب)، 2014 ،ص ص 75-76 .

40( )- An approach to learning the Tree of Life through Meditation , Bill Heidrick, pp 5-8, www.digital-brilliance.com, Wednesday 29/12/2021,h:13.40.

(41)- لمن شاء التوسع في شجرة الحياة يُنظر : من مقالات عالم الكبالا يهوذا أشلاغ (صاحب السُلّم) مقال الإيلان على الموقع الكبالي : www.hikmatelzohar.com24جانفي 2022 الساعة :8.35 .

(42)-حاييم الزعفراني ، يهود الأندلس والمغرب ،ج1 ،ص 212-213.

(43)- التأثيرات العربية والإسلامية في كتاب الهداية إلى فرائض القلوب لابن فاقودة اليهودي عبد الرزاق أحمد قنديل ، القاهرة، مركز الدراسات الشرقية، 2004، ص ص 39، 45،51.

(44)-بحيى بن يوسف بن باقودا الأندلسي ،الهداية إلى فرائض القلوب ، ترجمة وتعليق : إبراهيم سالم بن بنيامين يهودا ، ليدن :المطبعة البريلية ط1907،1-1912،ص ص378،355.

(45)-تراثنا الروحي من بدايات التاريخ إلى الأديان المعاصرة ، سهيل بشروئي ومرداد مسعودي ، ، ص ص443،441.

(46)-يهود الأندلس والمغرب ،حاييم الزعفراني ، ج1 ،ص 218-219.

(47)- ألفه التنّائي الربي يهودا هناسي (280م) ، ويقع في الباب الرابع من مشنا التلمود . من التصوف اليهودي المغربي ، عبد الرحيم حيمد ، ص ص 56-57.

(48)-من التصوف اليهودي المغربي : " سفر بيرح شوشان "أو زهرة السوسن ليعقوب بويفركان (القرن 16-17) ، عبد الرحيم حيمد ، ص ص 68-69.